۳۸۔ منظور نعمانی، تذکرہ امام ربانی، ص: ۸۷۔

۳۹۔ مکتوبات، ج ا، م ۱۰۲، ص: ۲۵۶۔

۴۰۔ تاریخ دعوت و عزیمت، ۴/ ۱۲۲، ۱۶۳۔

۴۱۔ تذکرہ امام ربانی، ص: ۶۹۔

۴۲۔ ایضاً، ص ۷۲۔

۴۳۔ مکتوبات ج ا، م ۲۱۳، ص: ۴۲۵۔

۴۴۔ ایضاً، ج ا، م ۴۷، ص: ۱۶۳۔

۴۵۔ تاریخ دعوت و عزیمت، ۴/ ۹۱۔ ۸۸۔

۴۶۔ مکتوبات، ج ا، م ۱۰۲، ص: ۲۵۶۔

۴۷۔ ایضاً، ج ا، م ۲۷۵، ص: ۶۷۰۔

۴۸۔ منتخب التواریخ، ۲/ ۲۷۱، ۲۷۲۔

49. Aziz Ahmed: Islamic Culture in The Indian Environment, Oxfordz Clarendon Press, 1964, pp.175.

۵۰۔ تاریخ دعوت و عزیمت: ۴/ ۲۵۔ ۱۰۸۔

۵۱۔ مشیر الحسن، Studies in Islam، دہلی، ج ۱۰، جنوری تا اپریل ۱۹۷۳ء، ص: ۱۱۹

52. Sheikh Ikram Muslim Civilization in India, pp. 162-163.

۵۳۔ مکتوبات، ج ا، م ۴۷، ص: ۱۶۲۔

54. Aziz Ahmad, Islamic Culture in Indian Environment, p. 180.

۵۵۔ مکتوبات، ج ا، م ۴۷، ص: ۱۶۲۔

۵۶۔ ایضاً، ج ۲، م ۹۲، ص: ۳۰۔ ۱۱۲۹۔

57. K.A. Nizami, Naqshbandi Influence on The Mughal Rulers and Politics, Islamic Culture, Jan, 1965, p. 47.

۵۸۔ مکتوبات، ج ا، م ۱۹۵، ص: ۳۹۰، ۳۹۱۔

۵۹۔ ایضاً، ج ۲، م ۶۷، ص: ۱۰۸۲۔

۶۰۔ ایضاً، ج ا، م ۵۳، ص: ۱۷۱۔

۶۱۔ مکتوبات، ج ا، م ۲۶۹، ص: ۶۴۶۔

۶۲۔ شیخ اکرام: رود کوثر، فیروز سنز، لاہور، ۱۹۵۸، ص: ۱۵۹۔

۶۳۔ ایضاً، ص: ۱۵۷۔

۶۴۔ تذکرہ امام ربانی، ص: ۹۹

۶۵۔ رود کوثر، ص: ۱۶۰۔

۶۶۔ نقشبندی، سرہندی، شیخ بدرالدین، حضرات القدس، اردو ترجمہ: ص ۱۷۔ ۱۱۶، بحوالہ تاریخ و عزیمت، ۴/ ۳۱۶۲۔

۶۷۔ مکتوبات، ج ۳، م ۵، ص: ۱۲۰۲۔

68. Arnold, T.W. Preaching of Islam, 2nd Revised ed: London, Constable & Company, 1913, p. 412.

۶۹۔ رود کوثر، ص: ۱۶۳۔

۷۰۔ مکتوبات، ج ۳، م ۴۳، ص: ۱۳۰۷۔

71. Shaikh Ikram, Muslim Civilization in India, p.169.

۷۲۔ مکتوبات، ج: ۲، م: ۴، ص: ۸۷۰۔

الفهم المقاصدي للقرآن الكريم وتجاوز القراءة النصية

Purposeful Understanding of the Qur'an and Ignoring the Textual Study

الدكتور أشرف عبد الرافع الدرفيلي*

ABSTRACT

The issue of understanding Qur'an is different from its textual reading and human understanding on its instractions guidance, lessons, parables and the other issues of life. It is neither an unimportant issue that anybody can attain or leave according to his will nor it is a secondary issue that is subject to attain or ignore any time. But it is a Qur'anic obligation and necessity of life supported by clear Qur'anic verses those direct us to understanding and pondering of the Holy Qur'an; because soundness of the life depends on the soundness of the souls and soundness of souls can not be accomplished without profound understanding of the Holy Qur'an.

The Study assures that the importance of knowledge depends upon its aims; for it causes creating the human cognizance about the universe and its function, as it benefits knowing of merits, demerits and ranks of the deeds in the Shari'ah and in actual and it is important while comparing the judgments as well as exchanging them from their origins to branches and from totals to partials. On contrary, ignorance of aims and muddling in Qur'anic and Shari'ah objectives lead a believer to indiscrimination and incoordination in sources and objectives as well as to defect in task and effect.

* الاستاذ المساعد، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، باكستان.

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد

جاء الإسلام برسالته العالمية، لتحقيق التوحيد الخالص، والاستخلاف المنشود، ولقد ساد المسلمون الأوائل أجزاء واسعة من قارات العالم، وشيدوا أعظم حضارة إنسانية جمعت بين المادة والروح .. الدنيا والآخرة .. الإيمان والعمل، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، كيف وصلوا لهذا النجاح الباهر؟ الإجابة تنحصر في عدة أمور تحققت، أبرزها أنهم فهموا ووعوا لمقاصد القرآن الكريم، فطبقوا أساسيات منهج الفكر المقاصدي للقرآن واقعاً عملياً، حتى بلغ حد العناية أثناء سعيهم الحثيث لفهم مقاصد القرآن، أن يقول الجيل الرائد منهم: سلوني عن كتاب الله، فو الله ما تسألوني عن آية إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، ومتى نزلت، وأين نزلت ".

أهمية الموضوع وأسبابه

قضية فهم القرآن بعيداً عن القراءة النصية، ووقوف الإنسان على توجيهاته وإرشاداته وعبره ومثلاته وقضاياه في الحياة، ليست أمراً فرعيا يحصله من يشاء، ويهمله من أراد، وليست قضية ثانوية على هامش الحياة، تحصل في أي وقت أو لا تحصل، إنما هي بحق فريضة قرآنية، وضرورة حياتية، أكدتها العديد من الآيات البينات، التي تحض على تفهم القرآن وتدبره، لأن صلاح الحياة بصلاح النفوس، وصلاح النفوس يكون بتفهمها للقرآن.

يؤكد البحث أن أهمية العلم بالمقاصد، يُسهم في صناعة وعي الإنسان بالكون ووظيفته ، ويفيد في معرفة المصالح والمفاسد، ودرجات الأعمال في الشرع والواقع، وهذا مهم عند الموازنة بين الأحكام، ومهم عند تعدي الأحكام من الأصول إلى الفروع ومن الكليات إلى الجزئيات، أما الجهل بالمقاصد، والخلط بين المقاصد القرآنية والمقاصد الشرعية، فهو يؤدي بالمكلف إلى عدم التمييز والتنسيق بين الوسائل والمقاصد، وإلى فساد الهدف والغاية.

وتتجلى أهمية المقاصد في بعث الفعالية الإيمانية والاسترجاع الحضاري للأمة على كافة الأصعدة، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعلمياً .. إلخ، وإحياء عبادة التفكر وإعمال العقل بالتدبر والتأمل في أرجاء الكون للتفاعل مع المخلوقات المسخرة للإنسان المستخلف، ورفض المقاصد القرآنية للتبعية والتقليد، ولفكرة الصراع والعنصرية، أو التمييز بين الأجناس.

تساؤلات الدراسة

١- ما هو مفهوم المقاصد وأهميته لدى مفكري الإسلام ؟

٢- هل الفهم المقاصدي للقرآن يشكل وعي إيجابي وفاعلية إيمانية لدى الفرد ؟

٣- هل لفهم المقاصد القرآنية مردود معرفي وحضاري وأخلاقي ؟

لهذا سوف يتناول البحث بالدراسة والتحليل النقاط التالية :

أولاً : مفهوم المقاصد ومراتبها

مفهوم المقاصد: والمقاصد جمع مقصد، وهو ما تقصده وتريد الوصول إليه.

ولقد عكف العديد من الأئمة الأعلام على بيان وتوضيح المفهوم العلمي والعملي لمقاصد القرآن الكريم، من أجل الوصول إلى جوهر مقاصد الشريعة الإسلامية، وتحقيق ما ينفع الإنسانية ويصلح أحوالها في الدارين، ذلك النفع والصلاح الذي هو جوهر مقاصد القرآن وما يتضمنه من شرع، وأبرز من تناولوا المفهوم المقاصدي وأسسه ومنهجه وغاياته وأهدافه بالتدقيق والتحقيق من الأئمة الأعلام: " إمام الحرمين، وحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، والإمام العز بن عبد السلام، والإمام ابن تيمية، والإمام الشاطبي"[١] ومن المحدثين الإمام النورسي، والقرضاوي الذي وضح "أن من اشتغلوا بعلوم الدين شغلتهم الظواهر عن الأسرار والمقاصد، وألهتهم الفروع عن الأصول، فظهرت الشريعة على ألسنتهم وأقلامهم كأنها قاصرة عن تحقيق مصالح الخلق، والقصور ليس في الشريعة، وإنما هو في أفهامهم التي قطعت الروابط بين الأحكام بعضها وبعض"[٢].

وعلى الرغم من تلاقي مساعي العلماء في التأصيل لمفهوم المقاصد، وذلك لتحديد وتأطير ما يسعون لتحقيقه، إلا أن ذلك التأصيل أدى بهم إلى التنوع في تصنيف تلك المقاصد ومراتبها، فحددها بعضهم من خلال تعريفهم للمقاصد بالعامة، ومنهم من حددها بالخاصة، ومنهم من حددها بالكلية .. إلخ، فنجد- على سبيل المثال- الشيخ الطاهر بن عاشور يعرف مقاصد التشريع في إطارها العام، فقال بأنها:"المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا: أوصاف الشريعة وغايتها العامة، والمعاني التي لا يخلوا التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضاً معان من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها"[٣] وتحدث الأستاذ علال الفاسي عن المقصد العام للشريعة الإسلامية بقوله: "المقصد العام للشريعة الإسلامية: هو عمارة الأرض، وحفظ نظام العيش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا فيها من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل والعمل، وإصلاح في الأرض واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع"[٤] ثم نجده يجمع في تعريفه بين المقاصد العامة والخاصة، حيث قال: "المراد بمقاصد الشريعة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"[٥].

أما "الخادمي" فقد استخلص من تعريفات سابقيه تعريفاً للمقاصد فقال: المقاصد هي "المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية، والمترتبة عليها، سواء كانت تلك المعاني حكماً جزئية، أم مصالح كلية، أم سمات إجمالية، وهي تتجمع ضمن هدف واحد، وهو تقرير العبودية الله، ومصلحة الإنسان في الدارين" [٦].

هذا التنوع في التعريفات الذي ذكرناها- وغيرها- يبين مدى التنوع المفهومي للمقاصد عند من تناولوها، مما ترتب عليه التنوع والاختلاف في مراتب المقاصد ذاتها، وهذا ما أكده الإمام *النورسي في رسائله بقوله: "فكما أن لكل من الألماس والذهب والفضة والرصاص والحديد قيمتها الخاصة، وخاصيتها الخاصة بها، وهذه الخواص تختلف، والقيم تتفاوت، كذلك مقاصد* الدين تتفاوت من حيث القيمة والأدلة"[٧].

فعلى الرغم من تنوع مراتب المقاصد من حيث القيمة والأدلة، واختلافها بحسب خواصها وتفاوت قيمها – كما قال النورسي– إلا أننا نؤكد أن هذا التنوع والاختلاف والتفاوت رهين بمدى فهم النص القرآني فهماً يرتكز على التعمق في جوهر ومضمون النص بعيداً عن السطحية– هذا من ناحية – وربط هذا الفهم بالواقع المعيش، حتى نستطيع الوقوف على المراتب الأولية للمقاصد بمصداقية، وتساهم في تغيير واقعنا الحضاري المعاصر– هذا من ناحية أخرى–

ثانيا: بيان المفهوم المقاصدي للقرآن الكريم

وفهم مقاصد القرآن يعني: التوجه والبحث عن قصد ومراد كلّ آية من آيات الله الكريمة، ليكون هذا الفهم مقدمة ضرورية وأساسية للتدبّر والتفكُّر في الآيات القرآنية، للاستفادة العلمية والعملية منها لسعادة الإنسان في الدارين، وإعانته في الكشف عن أيسر الأدوات والطرائق والإجراءات التي يسلكها العقل لبلوغ المعرفة الصحيحة، ويسعى في الحصول عليها لبلوغه الرقي الأخلاقي والحضاري.

والفهم الصحيح للنص القرآني يؤدي حتماً إلى إدراك المقاصد الأساسية والكلية للقرآن الكريم، ولكن هذا الفهم موقوف على اختيار المنهج، لأن المنهجية المقاصدية تساعد في فهم النص، وهي في حقيقتها تجسيد لفلسفة الدين وروحه، وكما قال الرسوني:" أن المقاصد بأسسها ومراميها، وبكلياتها وجزئياتها، وبأقسامها ومراتبها، وبمسالكها ووسائلها تشكل منهجاً للفكر والنظر والتحليل والتقويم والاستنتاج والتركيب "ولكن إذا كانت المقاصد منهجاً بما تضمنته، فإنها هي في حد ذاتها تحتاج إلى منهج لإحكام التعامل معها وتحرير القول فيها: فهماً واستنباطاً وتحديداً وترتيباً وتفريعاً وصياغة وتنزيلاً "[٨].

لهذا نجد النورسي يرفض أثناء سعيه لإبراز جوهر ومضمون المقصد القرآني وبيان مفهومه، أي منهج لا يرتقي لتحقيق تلك الغاية، فنراه يرفض المنهج الصوفي الإشراقي، والمنهج الكلامي الجدلي، على الرغم من إقراره أن هذين الأصلين تشعبا من القرآن الكريم، إلا أن البشر قد أفرغهما في صور شتى، لذا أصبحا منهجين طويلين وذوي مشاكل، فلم يبقيا مصانين من

الأوهام والشكوك، أما منهج الفلاسفة: فهو مشوب بالشكوك والأوهام، ولبلوغ فهم ومقاصد القرآن، قام بإتباع المنهج الذاتي للقرآن، لأنه يرى" أن طريق القرآن الكريم الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، وبجزالته الساطعة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقرب طريق إلى الله، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان، ولبلوغ عرش هذا الأصل هناك أربع وسائل: الإلهام، التعليم، التزكية، التدبر"[٩].

ثم يبين في موضع آخر أن إدراك المقاصد القرآنية وفهمها أمر ميسور للبشر بطبيعة القرآن الفطرية[١٠] وهو يخاطب جميع عقول البشر، ويتلاقى مع جميع مداركهم ورغباتهم، ويلبي جميع متطلباتهم، ويجيب عن جميع تساؤلاتهم"[١١].

وفي الحقيقة لقد بحثت عن بيان المفهوم المقاصدي للقرآن الكريم، فلم أجد ما يثلج صدري إلا من خلال تعريف النورسي الشامل للقرآن الكريم، وهو تعريف مؤسس على أساس مقاصدي من الدرجة الأولى، وفيه بيان للعلاقة التلازمية بين القصدين: الخلقي والشرعي، حيث يقول:"إن القرآن هو الترجمة الأزلية لكتاب الكائنات الكبير، والترجمان الأبدي لألسنتها المتنوعة، التالية للآيات التكوينية، ومفسر كتاب عالم الغيب والشهادة، وكذا هو كشاف لمخفيات الكنوز المعنوية للأسماء الإلهية المستترة في صحائف السماوات والأرض، وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمَرة في سطور الحادثات، وكذا هو لسان عالم الغيب في عالم الشهادة، وكذا هو خزينة للمخاطبات الأزلية السبحانية، والالتفاتات الأبدية الرحمانية الواردة من عالم الغيب المستور وراء حجاب عالم الشهادة هذا، وكذا هو شمس عالم الإسلام المعنوي وأساسه وهندسته، وكذا هو خريطة مقدسة للعوالم الأخروية، وكذا هو القول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه، وكذا هو المربي لهذا العالم الإنساني، وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلام، وكذا هو الحكمة الحقيقة لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما يسوق الإنسانية إلى السعادة، وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة، كذلك هو كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية، كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر، كذلك كتاب فكر، وهو الكتاب الوحيد المقدس الجامع لكل الكتب التي تحقق جميع حاجات الإنسان المعنوية، حتى إنه قد أبرز لمشرب كل

واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء والمحققين رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره ، فهذا الكتاب السماوي أشبه ما يكون بمكتبة مقدسة مشحونة بالكتب، واعلم أن القران خطاب ودواء لجميع طبقات البشر من أذكى الأذكياء إلى أغبى الأغبياء، ومن اتقى الأتقياء إلى أشقى الأشقياء، ومن الموفقين المجدين الفارغين من الدنيا، إلى المخذولين المتهاونين المشغولين بالدنيا"[١٢].

والنورسي بهذا التعريف الجامع للقرآن، بين أنه كتاب ميسور فهمه لجميع طبقات البشر، وجامع لمقاصدهم الدنيوية والأخروية، ويؤكد هذا بقوله: "إن القرآن قد حافظ على شبابيته وفتوته حتى كأنه ينزل في كل عصر نضراً فتياً، نعم، إن القرآن الكريم بما أنه خطاب أزلي يخاطب جميع طبقات البشر في جميع العصور خطاباً مباشراً، يلزم أن يكون له شبابية دائمة كهذه، فلقد ظهر شاباً، وهو كذلك كما كان، حتى أنه ينظر إلى كل عصر من العصور المختلفة في الأفكار، والمتباينة في الطبائع نظراً، كأنه خاصاً بذلك العصر ووفق معطياته، وملقناً دروسه وملفتاً إليها الأنظار، إن آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم مثله، وتتغير وتتبدل، إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ، بحيث تظهر متانتها أكثر كلما مرت العصور"[١٣] كما" أن القرآن الكريم فيه جميع ما يلزم السعادة الدنيوية والأخروية، كل حسب قيمته وأهميته، فهناك رموز وإشارات إلى خوارق المدنية الحاضرة، بل إلى أبعد منها من الحقائق الأخرى، مع ما فيه من حقائق جليلة"[١٤].

ثالثاً: المقاصد القرآنية وصناعة الوعي الإيجابي والفعالية الإيمانية [١٥]:

إن الفهم القرآني وفهم مقاصده فريضة قرآنية، وضرورة حياتية للإنسان، تجعله أقدر على التعامل معه تعاملاً صحيحًا؛ لأن السلوك فرع التصور، وإذا صح الإدراك كان خطوة على طريق التنفيذ والتعامل، ولم يكن هذا الجهد من الجيل الأول في حفظ القرآن الكريم والحفاظ عليه أمراً ثانوياً، وحشو للذاكرة لا فائدة منه، بل تبع ذلك الحفظ معرفة بمضامين هذا الكتاب الكريم، وفهم لقضاياه ومقاصده وأمثاله وقصصه وأوامره ونواهيه وحكمه وإشاراته، وتلتهم

الأجيال المتعاقبة تكتب في كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالقرآن الكريم، في مكيه ومدنيه، في إحكامه وتشابهه، في نزوله وحججه، وفي قصصه وتصويره وإعجازه وبيانه، يستوقفون أنفسهم عند نتائجه بعد تعرفهم على مقدماته، ويقفون على قضاءه بعد معرفتهم لأدلته وبيانه.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[١٦] قالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه قال-صلى الله عليه وسلم-: إن الظلم هنا ليس الذي تعنون إنما هو الوارد في قول العبد الصالح:﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١٧] فانظر كيف استوقفهم المعنى ولم يتجاوزوه حتى يعوه فيطبقوه، وكم مرت بنا هذه الآية وأمثالها ولم يتفكر فيها المرء كما ينبغي، من هنا أعطاهم القرآن الكريم عزاً حقيقياً وسؤدداً صادقاً، فقادوا العباد، وفتحوا البلاد بأمر الله رب العالمين، حتى قال الفاروق رضي الله عنه وأرضاه:"لقد كنا أذلة فأعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله"، وصدق ربعي بن عامر بحاله ومقاله هذا الأمر، فعلم رستم ذلك بقوله: "إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"، وما ذلك إلا لانطلاقهم من هذا المصدر الأصيل، الذي هو أول مصادر التشريع الإسلامي الحنيف، ولم يكن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقصرون هذا المصدر على جانب التشريع، وناحية الفقه بمعناه المحدود، الذي انحصرت فيه الأمة بعد ذلك أجيالاً متعاقبة، وأحقاباً متطاولة، بل كان الفهم القرآني لديهم يغزو كل جنبات الدين وأركان الحياة، حتى قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه وأرضاه: "لو ضاع مني عقال بعيري لطلبته في القرآن الكريم فإن الله تعالى يقول: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾[١٨]، وأصبح الصحابة- رضوان الله تعالى عنهم أجمعين- في فترة محدودة، ومدة معدودة، ينشرون الضياء ويهدون الناس إلى الله سبحانه وتعالى، حتى أتى على المسلمين حين من الدهر تبدلت لديهم المفاهيم، وتغيرت المعاني والمعايير، فأصبحت نظرتهم إلى القرآن الكريم نظرة جامدة هامدة، لا تبني جيلاً، ولا تحيي قبيلاً ولا تنشئ حضارة، ولا تؤسس في النفوس الوثبة إلى الإمام، تلك الوثبة التي عاشها السابقون، وبنى عليها اللاحقون، فحققوا في فترات

محدودة من الانتشار والهدى والعلم، ما يعد معجزة حقيقية في مقياس المنصفين بشهادة أعدائهم قبل أصدقائهم.

لهذا كان الفهم القرآني واستيعاب مقاصده أمراً حتمياً في إعادة صياغة الإنسان وتوجيهه نحو تحقيق الاستخلاف المنشود وتحمل الأمانة بثبات، ولعل الصورة الصادقة على حقيقة هذا الأمر، هي استحضارنا للحظة الأولى لبزوغ فجر الإسلام وشروق شمسه، ومستحضرين كذلك للأثر القرآني في حياة الرسولﷺ والصحابة الأجلاء، وأنه الدافع الذاتي ي حرك الصفوة الأولى للمساهمة في تشييد أول حضارة مؤسسة على العدل والحق والمساواة والحرية والأخلاق الفاضلة ..إلخ، وترسيخهم للإيمان بقيمة الروح والجسد والمادة، وأثرهم في واقع الحياة، بصورة متوازنة ومتلازمة، بدون تطفيف أحدهما على الأخر، واستيعابهم من خلال فهمهم للنص القرآني، في سرده التاريخي للحضارات وأسباب تطورها وتقدمها، ثم تدهورها وانحدارها وسقوطها- في القرآن- وعن أهمية الإيمان الشمولي كمرتكز حضاري، وأنه بزوال الإيمان التحقيقي، والوقوع في دائرة القراءة السطحية للنص القرآني، كان السقوط والانهيار.

فالفهم والتدبر والتأمل في النص القرآني، والوقوف على مقاصده الأساسية والكلية، كان من أبرز العوامل التي أمدت الجيل الرائد بأسباب التطور والتقدم، وحققت لهم النهوض في جميع المجالات، وهذا ما أكده الأمير " شكيب أرسلان " الذي يتلاقى مع النورسي وريتان في نفس هذه المعاني: "بأن القرآن كان من أبرز العوامل والمصادر التي أمدت المسلمين للارتقاء، وبناء حضارة شامخة — حين تدبروا سوره وآياته وألفاظه ومعانيه، وطبقوا أحكامه وتفهموا نصوصه - فتحولوا بسبب تطبيق هذا المنهج واهتدائهم به، من الفرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن القسوة إلى الرحمة، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد، وتبدلوا بأرواحهم الأولى إلى أرواح جديدة، وفتحوا نصف الكرة الأرضية في نصف قرن، فالقرآن أنشأ العرب نشأة أخرى، وخلقهم خلقاً جديداً، ولا عبرة بما يقال في شأن العرب قبل الإسلام، فعلى الرغم مما يقال في مدنية العرب القديمة، وأنها أقدم مدنيات العالم على الإطلاق، ولكن تلك المدنيات كانت محدودة على الجزيرة وما وجاورها، وقد أتى على العرب حين من الدهر

سادهم الغرباء وأذلوهم في أرضهم، كالفرس في اليمن وعمان والحيرة، وكالحبشة في اليمن، وكالروم في أطراف الحجاز ومشارف الشام، ويكفي القرآن أنه نقل أخلاق مدنيتهم من الرذائل ووأد البنات والإغارة، إلى الفضائل والحب والسلام والمودة والإيثار"[١٩] "فالعقل المسلم، يستطيع من خلال التأمل والفهم العميق في آيات القرآن الكريم، أن يستخرج الإشارات والتوجيهات الإلهية الهادية للإنسان في شتى الجوانب الحضارية، وأن يستخرج منها أصول المعرفة بالحقائق الكبرى، المتمثلة في الله والكون والإنسان والقيم، وأن يستخرج منها أصول تنظيم الحياة العملية وتشكيل الأخلاق، ويجد في القرآن كذلك منهجاً قويماً لتحصيل المعرفة الحسية التجريبية والمعرفة العقلية"[٢٠] وذلك لبناء مشروع حضاري تستأنس فيه اجتهادات العقل، بتوجيهات الوحي وهدي الشرائع، مشروعاً قابلاً لاستيعاب الاختلاف والتنوع، في سياقٍ يمكن له أن يبرز ويغذي معالم الوحدة والاتساق في حركة الإنسان، وفي مسار تاريخه الحضاري، كحركة كلية تشترك في وحدة الوجهة والمآل.

" وعند تحقيق هذه الغاية، يمكن إبراز فلسفة الإسلام- أو فلسفة القرآن وحكمته [٢١] — بعيداً عن الانشغال بالتوفيق الفلسفي والديني، وهذا أصبح أمراً ضرورياً لإثبات الهوية الإسلامية واستقلالية الفكر والذات، خاصة في عصرنا هذا، حيث تتدافع فيه الهويات الثقافية للحضارات، وليست هذه دعوة إلى الانغلاق، ولكنها دعوة للتحرر من التبعية الفكرية والتقليد الأعمى، وهذا لا يتعارض من الاستفادة بكل ما هو مفيد لدى الآخرين"فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها"[٢٢] وهذا كفيل بأن يُدحض الإدعاء: بأن القرآن لا يساير النهضة الحديثة والعقول الحاضرة، لأنه نزل لمسايرة أهل الصحراء والبداوة، وأنه لا يواكب التطور العلمي، وكتاب قد عفى عليه الزمن"[٢٣] وكذلك يدحض الادعاء الذي صرح به " جوستاف لوبون " في كتابه "حضارة العرب" حين عقب على دهشته للحركة التقدمية، التي قام بها المسلمون الأولون في العالم، بأنها تعتبر من الأعاجيب، التي يجب أن تتأملها العقول، ولكنه علل ذلك التطور الحضاري الذي وصلوا إليه، بأن الأمة العربية لها قِدم في المدنية، وأنها ورثت عن آبائها

الأولين من الاستعداد للنهوض، والقابلية للترقي، ما يكفي لإبلاغها هذا الشأو من التقدم والنهوض.

وهذا افتراء وزيف للحقائق، وتضليل للوقائع التاريخية، فالإسلام جاء والعرب في أحط دركات الجاهلية، وأشد درجات الجمود، والباحث في تاريخ العرب، لا يرى غير الإسلام سبباً في إحداث هذا الحدث الضخم من التجديد والتحسين في شئونهم، وتوحيد قلوبهم، فالذي يُسلم به العقل: أن كل ما حدث لهم من الرقي، جاءهم بتأثير مبادئ هذا الدين فيهم بعد فهمهم لنصوصه ومقاصده، وقيامهم بتأدية تعاليمه، وإدراكهم أن هذا الدين يشتمل على جميع أصول الارتقاء مادياً ومعنوياً[٢٤].

وهذا ما أكد عليه محمد الغزالي: "بأن الحياة الإسلامية تكون أنضر حياة على الأرض وأرقاها وأعلاها، بقدر شدة ارتباط المسلمين بالمصحف الشريف- من خلال فهم نصوصه وتطبيقها واقعاً عملياً- وبالنبوة، التي طبقت أحكامه، وأبرزت أهدافه، وجعلت الحياة العامة والخاصة تستمد وجودها وضياءها من آياته وهداياته، وعلى العكس من ذلك، فإن سقوط المسلمين كان يوم قطعوا حبل الإسلام، واستهانوا بروابطه، فهم مطالبون بتطويع الحياة لخدمة الدين، وتوجيه النشاط الفردي والجماعي لخدمة الرسالة العامة وتحقيق غاياتها، وأن الكدح لله تعالى يتجاوز المسجد، ليتناول الحقل، والمصنع والمرصد، والدكان، والديوان، والبر والبحر، وما يكتب وما يسمع، ويتناول خطرات النفوس وأحلام النيام، فالإسلام رسالة، توجب على معتنقيها، أن يجعلوا مجتمعهم أجدر بالحياة، وأقدر على النجاح"[٢٥].

ولعل نتاج عدم استيعابنا لإرشادات القرآن وتوجيهاته، وانسياقنا خلف التأويلات المرتكزة على المذهبية الطائفية، والكلامية الجدلية، هو انكماش الحضارة الإسلامية وتأخرها عن مواكبة التقدم المعاصر— إن لم تكن تقودها— وجعل أبنائها يوصَمون بالتخلف والرجعية؟ وبعبارة أخرى: كان أبناء الإسلام أنفسهم من صنع العوائق التي عطلت مسيرة تقدمها ونهضتها، وبزوال هذه العوائق تعود لها حيويتها وقيادتها وفاعليتها؟ ولا شك في أن فُجائية الانحدار الحضاري للأمة الإسلامية، وما سببته من عبثية في جميع الجوانب الحضارية للأمة، ولد

تبايناً صدامياً للأفكار بين أبناء الأمة الواحدة، وخاصة بين النخبة، الذين رأوا أن العالم الإسلامي بتقهقره عن مسار التقدم، وتخلفه عن ركب ومسايرة الحداثة المعاصرة، يقف عند مفترق طرق خطير، فسارعوا لإيجاد الحلول والأسباب، وعلى الرغم من تنوع الأسباب بينهم، إلا أنهم تلاقوا حول نقطة جوهرية، ألا وهي فقدُ المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم: وخاصة النورسي، ومحمد الغزالي، وشكيب أرسلان الذي يرى: أن أسباب الارتقاء للمسلمين في الماضي كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية – القرآن والسنة – وبما تحويه من شمولية القيم الإيمانية وجماعها، وتحولوا بهدايتها وفهمهم لمراميها خلقاً أخر، ونهضوا وفتحوا وسادوا وبلغوا من المجد والرقي مكانة عالية، وعندما ارتفع هذا السبب من بينهم، ولم يبق من الإيمان إلا اسمه، ومن الإسلام إلا رسمه، ومن القرآن إلا الترنم به، ولم يبقي من الدين وتعاليمه إلا كما يبقى الوشم في ظاهر اليد، فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة والمجد والتقدم والنهوض بمجرد الاسم دون الفعل، لكان يحق لنا أن نقول: أين عزة المؤمنين من قوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢٦] ولو كان الله وعد بنصرهم بدون استعدادهم المادي والمعنوي لكونهم مسلمين فقط، لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد هذا الوعد الصريح بالنصر، كما في قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢٧] ولكن الله غير مخلفٍ وعده، والقرآن لم يتغير، وإنما المسلمون هم الذين تغيروا، والله تعالى أنذر بهذا فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢٨] ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[٢٩] بل إن زوال الحضارات مرهون بفساد القيم الإيمانية لأفرادها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[٣٠] فكيف ترى أمة ينصرها الله بدون عمل، ويفيض عليها من الخيرات، وهي قعدت عن جميع العزائم التي كان يقوم بها الصفوة الأولى؟ هذا بالإضافة إلى الجهل، الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخمر والخل، وارتفاع نسبة الأمية المتفشية في قطاعات كبيرة من المسلمين، ولا شك أن ارتفاع نسبة الأمية في أمة " أقرأ " كفيل بأن يطيح بأي سبيل من سبل التقدم"[٣١] كما أن العلم الناقص – والذي أدى إلى الجهل بقضايا القرآن الأساسية، وأدى لصناعة الفتاوى المطبوخة – هو أشد خطراً من الجهل البسيط، لأن صاحب العلم الناقص لا يدري ولا يقتنع بأنه لا يدري، وكما

قيل: ابتلائكم بمجنون، خير من ابتلائكم بنصف مجنون.. وأقول: ابتلائكم بجاهل، خير من ابتلائكم بشبه عالم"[٣٢].

كما أن عدم التعايش مع نصوص القرآن تعايشاً حياتياً أدى إلى فساد الأخلاق، وفقد الفضائل التي حث عليها القرآن، والعزائم التي حمل عليها سلف هذه الأمة وأدركوا بها الفلاح، فالقوة السلبية التي كان يشتهر بها سيدنا عمر في الجاهلية، تحولت في الإسلام إلى قوة إيجابية، تدافع عن الحق، وتساند المظلوم، وتبطش بالظالم، والمنفعة الذاتية الآنية، والتي ولدت الأنا السلبية، حتى وصل الأمر إلى المتاجرة بالفقراء وسلبهم حريتهم، وإدخالهم في دائرة العبيد، والمتاجرة في أجسادهم، واستعبادهم تحت مسمى الرقيق، فتحولت المنفعة السلبية، إلى منفعة إيجابية تحت مظلة الإيمان وباسمه، ولعل صورة سيدنا عثمان بن عفان شاخصة أمام أعيينا حين أثر المتاجرة مع الله، ورفض الحصول على الزيادة في بضاعته، وكان يقول في كل مره: هناك من زادني أكثر من ذلك، حتى وصلت إلى عشرة أضعاف ثمنها، فقال له التجار: ومن غيرنا يزيدك، فقال قولته الخالدة: الله زادني مائة ضعف[٣٣] إني وهبتها لفقراء المسلمين، كما أن مشهد شراء سيدنا أبو بكر لسيدنا بلال بن رباح – رضي الله عنهم أجمعين – ليفُك أسره من أمية بن خلف، ويعتقه لوجه الله، دليل على أثر القرآن والإيمان التحقيقي في تحويل المرتكز السلبي إلى مرتكز إيجابي، كما أن إشباع رغباتهم لم تكن منجرفة لإشباعها بالرذيلة والأهواء والشهوات المحرمة، بل كانوا يشبعون رغباتهم الجسدية بما أحله الله لهم، ويُشبعون رغباتهم الروحية بالذكر والتعبد لله، ويكفي أن منهج الحضارة الإسلامية – القرآن والسنة الصحيحة – الذي تستمد منه قوتها وفاعليتها في الكون والحياة، أن ذلك المنهج لم يحظر شيئاً، أو يغلق باباً من أبواب الفاحشة والحرام، إلا وتجد في المقابل أنه سهل وفتح مائة باب من أبواب الحلال التي تُشبع رغبات الإنسان وتلبي حاجاته ومتطلباته، من غير تجاوز على رغبات الآخرين.

بل إن تعاملهم مع الفرائض التي اقرها القرآن ووضحتها السنة، لم يكن تعاملاً سطحياً هشا، بل إنهم تفهموا أولاً مرامي هذه العبادات ومقاصدها، على أنها ليست طقوساً مبهمة تربطهم بالغيب المجهول، أو أنها ترانيم تعبدية تلاك بالألسنة ولا تستشعرها قلوبهم وجوارحهم،

ولكنهم تفهموا أن المقصد الأساس من وراء تأدية العبادات المتمثلة في أركان الإسلام الخمسة، هو إفراد العبادة لله، ثم تنشئة الفرد والمجتمع على مكارم الأخلاق، تلك هي فلسفة العبادة في الإسلام، فهي أشبه بالتمارين الرياضية التي يُقبل عليها الإنسان بشغفٍ ليلتمس من وراء المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة، فالصلاة حين أمر الله بها، أبان الحكمة والمغزى من وراء إقامتها، وهي أنها تنقي الفرد والمجتمع وتعصمهم الزلل، وتنهاهم عن الوقوع في عموم الفحشاء والمنكر﴿ وأَقِمِ الصَلاةَ إن الصَلاة تَنهىَ عن الفحشآءِ والمنكَرِ ﴾[٣٤]وحين فرض الإسلام الزكاة، بَين أنها ليست ضريبة أو جباية، ولكنها غرس لمشاعر الحنان والرأفة والتعاون، وتوطيد لعلاقات المحبة والتعارف والألفة بين شتى الطبقات، وتنظيف للنفس من أدران الشح والبخل، وقد نص القرآن على الغاية من إخراج الزكاة فقال تعالى: ﴿ خُذ مِن أَموَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِرُهُم وَتُزَكِيهِم بِهَا﴾[٣٥]ولقد وسع النبيﷺ في مدلول كلمة الصدقة بين أبناء الأمة الإسلامية، حتى لا يقتصر العطاء والتعاون على أصحاب المال فقط، بل تخطى بالمعنى من الماديات إلى المعنويات والمحسوسات، فقالﷺ كما ورد في الصحاح: "تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة" والصيام ليس تعذيب للنفس والجسد، أو حرمان مؤقت من بعض الأطعمة والأشربة دون مغزى، ولكن الحكمة من الصوم هو صحة الجسد وعافية أعضائه، وخطوة مؤقتة لتعويد النفس وحرمانها دائماً من شهواتها ونزواتها المحظورة، يبين هذا ما قالهﷺ:"من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعانه وشرابه"، وقالﷺ: "ليس الصيام من الطعام والشراب، إنما الصيام من اللغو والرفث، فإن سابك أحد أو جهل عليك فقل إني صائم" والحج ترتسم في مناسكه أسمى معاني الأخوة والمحبة والتعارف والوحدة والمنفعة المتبادلة، ويكفي عبادة الحج أنها ترفض أي شيء يعوق تحقيق هذه المعاني بين أبناء الكتاب والأمة الواحدة﴿الحَجُ أَشهُر مَّعلُومَات فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحَج ﴾[٣٦]

وبسبب البُعد عن فهم النص القرآني والحديثي فهماً إدراكياً واعياً، زادت من شبهات

الجهلاء الجبناء والترويج لها، وأصبح الإسلام محصوراً بين دائرة الجامدين والجاحدين[٣٧]: فالفئة الجامدة: هي الفئة التي لا تريد أن تغير شيئاً، ولا ترضى بإدخال أقل تعديل مستحدث على أي شيء، وتحارب من أجل صب واقعنا في قالب السلف دون تحديث، أو حتى مراعاة لواقع الحال ومستجدات العصر ومواكبته، ومن ذلك أصول التعليم الإسلامي، ظناً منهم بأن الاقتداء بالكفار كفر، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار.

ولعل هذا أوجد حالة من الكسل الفكري والمنافسة، وقتل أي خطوة للابتكار والاكتشاف، وأصبحوا عالة على من يسمونهم بالكفرة، بل ومستهلكين لصنائعهم ومنتجاتهم ومخترعاتهم.

وأما الجاحد: فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم عن جميع مقوماتهم، ويغير ثقافتهم وهويتهم وشخصيتهم، بل ومنهم من يحملهم على التنكر لتاريخه وماضيه.

زد على ذلك: فساد أخلاق الأمراء– إلا ممن رحمهم الله– وإتباع شهوات الأنفس بلا قيد، والتنافس على الأمارات والرئاسات، وظن هؤلاء – إلا من رحم ربك – أن الأمة وثرواتها ملك لهم يفعلوا بها ما يشاءون، ومن حاول نصحهم بطشوا به ليكون عبرة لغيره، وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء، المتقلبون في نعمائهم، وأفتوا بجواز قتل ذلك الناصح، بحجة أنه شق عص الطاعة وخرج عن الجماعة، وبمرور الأيام خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للعيش، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا، فسوغوا للفاسقين من الأمراء أشنع موبقاتهم، وأباحوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين، هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء وعلو مناصبهم، يظنون فتياهم صحيحة، وآرائهم موافقة للشريعة، والفساد بذلك يعظُم، ومصالح الأمة تذهب والإسلام يتقهقر، والعدو يعلو ويتنمر، وإثم كل هذا في رقاب هؤلاء العلماء "[٣٨].

مع العلم بأن المستشرقين أصحاب المصداقية العلمية، قبل علماء الإسلام أنفسهم، يعرفون أن مسوغات العمران وتصوراته، والعدالة والحق والمساواة والحرية الشرعية المنضبطة...إلخ،

لا يجدونها إلا في الإسلام - القرآن والسنة النبوية الصحيحة - حيث يحض على التقدم الدنيوي والأخروي: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣٩) وحث المسلمين على السعي في الأرض لتعميرها والاستفادة من خيراتها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(٤٠) وسخر لهم كل مقومات التقدم الحضاري والعمران: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾(٤١) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤٢) ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٤٣) "أما الإنجيل فإن من أبرز قواعده: أن الجمل إذا دخل في ثقب الإبرة، فالغني لا يدخل ملكوت السموات"(٤٤).

فالدين الإسلامي، قرآنه وتاريخه، يثبتان قولاً وعملاً، ونظراً وتطبيقاً، أنه سبب لتقدم أهله حين اهتدوا به، وكان حاضراً في وجدانهم ومعاشهم، وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه.

رابعاً : تمييز العقل الإنساني للمقاصد بحسب مراتبها ووسائلها

إن المقاصد مراتب ودرجات، وللدين أصول وكليات، والفروع تابعة لها، ولا يصح جعل الفرع أصلاً، والأصل فرعاً، ولا يقر بذلك تأصيل منطقي أو فقهي، لذا فإن جميع المقاصد ترجع في أصلها إلى مقصد كلي هو: معرفة الله ووحدانيته وعبادته، ولأجل هذا المقصد تنزل القرآن، وبعث الله الأنبياء والرسل، وخلق الخلق: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾(٤٥) وإذا كانت أمهات المقاصد والكليات هي: التوحيد والنبوة والعدالة والحشر، فإنها جميعاً تخدم المقصد الكلي الأعظم وأعلاها مرتبة: وهي معرفة الله وعبادته.

والمقاصد الشرعية - المستنبطة من النص القرآني - تتفاوت مرتبها على حسب تباين

آثارها، ما بين ضرورية، وحاجية، وتحسينية، وتقديم مرتبة الضرورية عن غيرها واقع بسبب حاجة مجموع الأمة وآحادها إلى ضرورة تحصيله، وقد تقدمت هذه الضروريات عند غالبية العلماء خمس أو ست، وهي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ النسب أو النسل، وحفظ المال.

وعلى الرغم من قناعتي بهذه الضروريات، إلا أن هناك العديد من المقاصد المادية والمعنوية، التي لم يتطرق لها أحد من العلماء وجمهور المثقفين إلا على استحياء، وقد تفرض بعض المقاصد نفسها على الواقع المعيش لتتقدم ما تم ذكره، بل ولا يمكن تحقيق المحافظة على هذه المقاصد الضرورية، والتي عكف العلماء والفقهاء على تأصيلها وترجيحها واستنباط أدلتها، إلا بالمحافظة على مقصدٍ طارئ على واقع الحياة والفكر المعاصر، فمثلاً: في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الأجلاء، كانت الحرية، والمساواة، والعدل، والتعايش السلمي والإخاء، والحوار البناء، والإيثار، والتكافل الاجتماعي، والعفة، والالتزام بمجموع الأخلاق.. إلخ، جميعها كانت مقاصد، ولكنها كانت مقاصد مفعله وعملية وتطبيقية في واقع الحياة، والناظر إلي تطبيق هذه المقاصد بينهم، يظن أنها أمور عادية اعتيادية، ولكن مع مرور الزمان وتبدل المكان والحال والأحوال والأشخاص، أصبحت مقاصد ومطالب صعبة المنال والتطبيق، خاصة في بلاد المسلمين - أهل القرآن — وأصبح من يتحدث عن الحرية والظلم والاستبداد والحاكم والمحكوم ... إلخ، شخص مارق عن الجماعة، وعاص لأولي الأمر والطاعة، وظن بعض الجهلاء الغوغائيين أن الغرب الإنجيلي أفضل حالاً من الشرق القرآني، وهؤلاء نسوا وتناسوا أن القرآن هو الخطاب الإلهي الأخير للبشرية، الذي اشتمل على جميع مراتب المقاصد الروحية والمادية، الدنيوية والأخروية، الكلية والجزئية، الأصلية والفرعية، ولا تجد ذلك في أي كتاب أو خطاب أو صحيفة أو أسفار أخرى، فالعيب ليس في الخطاب الأخير، ولكن العيب في عدم استيعاب المخاطبين لمضامينه.

وقد يتساءل البعض: كيف تكون الحرية مقصداً — مثلاً - ضرورياً عن حفظ الدين والنفس ... إلخ ؟

أقول متسائلاً ومجاوباً: هل يمكن أن يكون حفظ الدين واقعاً عملياً من خلال تطبيقه بإقامة الفرائض والحدود، بدون تطبيق حرية العقيدة ؟ كلا ، لا يمكن أن تضيق على الفرد في معتقده وممارسته لشعائره، وترفض إقامة حدود الله أو التحدث عنها، ثم تتحدث عن حفظ الدين، ولا يمكن أن نتحدث عن حفظ النفس، والإنسان غير آمن على نفسه وسط الصراعات والتطاحنات السياسية والإجراءات القمعية والبوليسية وتلفيق التهم، خاصة في البلاد ذات الحكم الاستبدادي، التي تنكرت لأهم المقاصد القرآنية للإنسان في حريته الشخصية، وحرية الرأي.

وهذا يستدعينا القول: أننا لابد وأن نخرج بالمقاصد القرآنية من عباءة قراءتها الفقهية الأصولية القديمة، إلى قراءة تتلاقى مع واقعنا، أي قراءة مقاصدية جديدة، بعين تتعمق وتتفحص النص بعيداً عن النظرة القشرية الظاهرية، وبعيداً عن التسليم المطلق والتلقي التقليدي لما كان يصح تلقيه والتسليم به في وقت ما ومكان ما، وهذه ليست دعوة للتنكر للقراءات المقاصدية السابقة، وإلى ما قرره علمائنا الأجلاء – جزاهم الله عنا خير الجزاء – ولكنها دعوة للاستنفار وإثارة الهمم والعزائم الخاملة، لكي ينكبوا على النص القرآني فيستخرجوا دره ومقاصده، مع مزج ما تم إقراره من مقاصد سابقة، لكي تكون مقاصد القرآن مقاصد حركية وفاعلة في واقع الحياة، ومتفاعلة مع المنتسبين لكتابها، وهذا يستدعي أيضاً وضع المنهجية والوسائل الكفيلة بالتنفيذ والتطبيق، ويستدعي شمولية البحث المقاصدي في جميع احتياجات الإنسان ومتطلباته، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وعلمياً ... إلخ.

خامساً : الفوائد المعرفية للمقاصد القرآنية وطرق معرفتها[٤٦]

إن الجهل بالمقاصد يؤدي بالمكلف إلى الانحراف عن الطريق المنشود للاستخلاف وتحمل الأمانة، ويجعله متخبطاً بين ما هو حسن وقبيح، وحلال وحرام، خاصة في زماننا هذا الذي ابتلي فيه الإنسان المسلم بعمائم صناع الفتوى وطبخها، لذا فإن معرفة المقاصد لها من الأهمية الكبرى ما لا يمكن حصره وعده، ولكن يمكننا إجمالها فيما يلي:

أولاً : إن العلم بها يبصر الإنسان بحكمة الله في أفعاله وأحكامه، وبكمال تشريعاته وأحكامه.

ثانياً: إن العلم بالمقاصد يفيد معرفة مراتب المصالح والمفاسد، ودرجات الأعمال في الشرع والواقع، وهذا مهم عند الموازنة في الأحكام.

ثالثاً: ومعرفة المقاصد والعلم بها نافع في تَعدية الأحكام، من الأصول إلى الفروع، ومن الكليات إلى الجزئيات، ومن الأشباه إلى النظائر.

رابعاً: إن معرفة المقاصد يرسخ في النفس السكينة والطمأنينة بالشريعة وأحكامها، ويجعله قانعاً بالتسليم في أدائها، حيث أن النفس مجبولة على التسليم للحكم الذي عرفت علته"[٤٧].

خامساً: إنها تقف بالإنسان على تفهم أحوال المعاد والبراهين لإثباته وكيفية العذاب والعقاب والجزاء والثواب، وتفاصيل الجنة والنار والتعذيب والتنعيم، وحالات أهل السعادة ودرجاتهم.

ولكن معرفة المقاصد وتحصيل فوائدها، لابد وأن تسبقها بعض الأمور اللازمة والضرورية، والتي بدونها نفقد الحصول على أي فائدة أو معرفة، ومنها:

أولاً: أهم القواعد لفهم الآيات القرآنية بعيداً عن القراءة النصية[٤٨]:

ويتضمن ما يلي:

معرفة أسباب النزول: إن معرفة سبب نزول الآية، يساهم في فهم وإدراك مراد الله تعالى فيها- من خلال تفهم العقل الإيماني- فالذي يدرك سبب نزول الآية التي يقرؤها، تكون لديه القدرة على الفهم الصائب والإدراك الواعي لمراد القرآن الكريم، فلا يفهم آية أو يفسرها بغير وجهها، ولا يضع كلمة في غير مكانها، كما إن إدراك السبب يعين على الحفظ، ويثبت الوحي في ذهن من سمع الآية؛ وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص ، والأزمنة والأمكنة، يمكنه من إدراك قيمة سبب النزول، وأثر معرفته في فهم الآية من نصوص متعددة، فعروة بن الزبير رضي الله عنه وأرضاه يفهم قوله تعالى:﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾[٤٩] يفهم من هذه الآية الكريمة أن لا إثم على من ترك السعي بين الصفا والمروة، لأن الآية الكريمة تقول: ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ونفي الجناح لا يدل على الفرضية، حتى صوبت له خالته السيدة عائشة في فهمه، بتذكيره بسبب النزول، وهو أنه كان

على الصفا صنم يقال له: "إساف" وعلى المروة صنم يقال له: " نائلة " وكان المشركون إذا سعوا تمسحوا بهما، فلما ظهر الإسلام، وكسرت الأصنام، تحرج المسلمون أن يطوفوا بهما، ولأن الله تعالى لم يذكر السعي بين الصفا والمروة في القرآن، كما ذكر الطواف، وكما أشكل على مروان بن الحكم فهمه قوله تعالى:﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٥٠] حتى بعث إلى ابن عباس يقول: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس:"إن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، حين سألهم النبي عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه".

وخلاصة القول: أن إدراك سبب النزول يعين على فهم الآية فهماً صحيحاً ويزيل من الذهن اللبس والإشكال، بل يعين على الحفظ والاستذكار.

معرفة بيئة النزول: وأقصد ببيئة النزول أولاً، البيئة المكانية، فغير خاف على مسلم، أن القرآن نزل على مرحلتين، المرحلة الأولى: في مكة، والمرحلة الثانية: في المدينة، ولكل نزول بيئته الخاصة به وملابساته وأحواله التي إن أدركها قارئ القرآن الكريم وسامعه، ووضعها المفسر في حسبانه وذهنه، قصر عليه مسافات كثيرة في الفهم والإدراك.

معرفة الناسخ والمنسوخ: معرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، من أسس فهم القرآن وإدراك معانيه، وقد قال علي بن أبي طالب لقاضٍ: أتعرف الناسخ والمنسوخ ؟ قال: لا أعلم قال: هلكت وأهلكت " ولقد جاء في الأثر أن ابن عباس – رضي الله عنه – فسر الحكمة في قوله تعالى: ﴿ ومن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[٥١] بمعرفة ناسخ القرآن، ومنسوخه، ومحكمه ومتشابه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، فعلم الناسخ والمنسوخ باب من أبواب فهم القرآن فهماً صحيحاً دون خلط بين المفاهيم؛ لأنه يوضح مسيرة التشريع الإسلامي في المسائل الاجتماعية والتشريعية ويضع خارطة في ذهن الباحث والمفسر، من خلالها يستطيع أن يستبين مواطن خطواته ومطان مطلوبه.

معرفة المحكم والمتشابه: معرفة محكم القرآن الكريم ومتشابهه، هو طريق من طرق التوصل إلى إدراك المعني القرآني عبر وسيلة آمنة، وضابط من الضوابط التي تقي الباحث عن الفهم الصحيح للنص القرآني من الوقوع في الزيغ والسقوط في أي فهم غير صحيح أو رأي غير عاقل، ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات ثلاث تفيد أولاها: أن القرآن الكريم كله محكم، وهي كما في قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ من لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٥٢] وآية تدل على أنه كله متشابه وهي قوله تعالى:﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَّشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[٥٣] والثالثة تفيد أن بعضه محكم وبعضه متشابه وهي قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾[٥٤] وقد ذكر العلماء وجوهاً وتوجيهات لهذه الآيات الكريمة، ومما يظهر لك منزلة هذا الباب في الفهم والتفسير، أن تدرك أن آية آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الآية كانت فارقة بين السلف والخلف في الفهم والتفسير، فقد وقف السلف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ وعدو الواو استئنافية لمعنى جديد، ورأي الخلف أن الواو العاطفة عطفت الراسخين في العلم على لفظ الجلالة﴿اللهُ﴾ في العلم بالمتشابه، يقول الإمام الزركشي- رحمه الله- في البرهان: فمنهم من رجح أنها - أي الواو - للاستئناف، وأن الوقف على ﴿ إِلاَّ اللهُ ﴾ أن الله تعبدهم من كتابه بما لا يعلمون، وهو المتشابه، كما تعبدهم من دينه بما لا يعقلون، وهو التعبدات، وفهم من رجح أنها للعطف أن الله لم يكلف الخلق بما لا يعلمون وضعف الأول، لأن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده ويدل على معنى أراده، فلو كان المتشابه لا يعلمه غير الله لكرر معناه، ولا يسوغ لأحد أن يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم المتشابه، فإذا جاز أن يعرفه الرسول مع قوله:﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته والمفسرون من أمته، ألا ترى أن ابن عباس كان يقول: أنا من الراسخين في العلم، ويقول عند قراءة قوله تعالى في

أصحاب الكهف: ﴿مَا يَعْلَمهم إلا قليلٌ﴾ وأنا من أولئك قليل .. من هنا تظهر قيمة إدراك المحكم والمتشابه لفهم وتفسير كتاب الله عز وجل.

معرفة الوقف والابتداء: ولا شك أن معرفة الوقف والابتداء يعين على معرفة اكتمال المعنى وفهم المراد؛ لذلك عني به العلماء القدامي والمحدثين، وعدوه علماً مستقلاً من علوم القرآن، وقد مضى بنا قبل قليل مدى الخلاف الواقع بين السلف والخلف من أجل خلافهم في الوقف، وذلك من خلال آية آل عمران، ونستطيع أن نفرق بين قارئ فاهم للقرآن، وقارئ غير واقف على المعاني، من طريقة الوقف والابتداء عند كليهما، فقد تسمع قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٥٥] فيقف على ﴿استحياء﴾ ويبدأ بقوله: ﴿على اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ ﴾ فيفيدك معنيين:

الأول: أن مشيها كان على استحياء.

والثاني : أن كلامها على استحياء .

وما ذلك إلا لفهمه للمعنى المبني على طريقة الوقف والابتداء، وتسمع أخر يقرأ قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٥٦] فيقف على قوله: ﴿لاَ تُشْرِكْ ﴾ ثم يبدأ بقوله: ﴿بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فيفدك النهي عن الشرك والقسم بالله: أن الشرك ظلم عظيم، وذلك مفاد من طريقة الوقف والابتداء، وكم في القرآن الكريم من جمل تحمل هذه الوقفات، حتى عده العلماء علماً من علوم القرآن لا يكون المرء مؤهلا للفهم إلا به.

معرفة عادات العرب وأخبارهم: من الأمور اللازمة للقارئ وللمفسر حتى يفهم مراد القرآن ويعي مضمونه، أن يدرك عادات العرب التي نزل القرآن فيهم، تلك العادات التي راعاها القرآن الكريم ووضعها في حسبانه وهو يأمرهم وينهاهم ويعظهم ويرشدهم ويوجههم إلى الصراط المستقيم، فقد كان للعرب – مثلاً – عادات وأعراف في علاقة الرجل بالمرأة ونظرته إليها في طفولتها وشبابها، ونزل القرآن الكريم يراعي هذه العلاقة وتلك النظرة، وأنزل لها الخطاب الوافي

الكامل، الذي يتناسب مع تلك العادات، واقرأ- إن شئت مثلاً - قوله تعالى وهو يتحدث عن علاقة الأب بمولوده إن كان أنثي:﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٥٧] والآية تصور بوضوح وجلاء علاقة العربي بابنته، وترصد تلك الخلفية الاجتماعية، التي كان يحياها الإنسان العربي في هذا الزمان

ومن العادات التي رصدها القرآن الكريم في حياة العرب كذلك دخولهم من خلف الدار في الأشهر الحرم والتي صورها القرآن الكريم بقوله:﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ من ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥٨] فكيف يتسنى لمفسر أن يفهم هذه الآية دون أن يفهم عادات العرب في ذلك.

ومن العادات الاجتماعية والأعراف العربية التي ذكرها القرآن الكريم جعلهم البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، وصحح معتقدهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[٥٩] فكيف يقف المفسر أمام هذه الآية دون أن يعرف الخلفية الاجتماعية لها، ودون أن يعي عادات العرب في تعاملهم مع هذه الأشياء :البحيرة والوصيلة والسائبة والحام.

معرفة معهود الخطاب القرآني: نزل القرآن لكريم بلسان العرب، وتحدث بحديثهم، وعالج قضاياهم وعبَّر بلغتهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَّشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٦٠] وتميز القرآن في خطابه وبيانه وإرشاده وبلاغته ، بتراكيب معينة ، وعبارات خاصة تتبعها العلماء قديماً وحديثاً.

معرفة قواعد اللغة العربية: نزل القرآن الكريم بلسان العرب، وتميز بخصائص تلك اللغة التي أعلى الله تعالى قدرها، وخلد في العالمين ذكرها، بل أنزل كتابه الخالد بها، من هنا كان فهم اللغة وقواعدها ومعرفة أساليبها، مدخلاً مهماً لفهم القرآن ومعرفة مقاصده، وعلى قدر تفاوت الناس في فهم خصائص العربية، يتفاوت فهمهم بألفاظ القرآن الكريم ومعانيه.

المرجعية المذهبية وأثرها في قراءة النص القرآني [٦١] : إن الاجتهاد، والنظر، والتدبر في آيات الله جل وعلا، من أجل استنباط الأحكام الشرعية أمر مفروض وواجب على أهل الذكر، والعلماء الذين تتوافر فيهم شروط الاجتهاد والاستنباط.

والمسلمون لا يتنازعون في الأحكام الواضحة والظاهرة والمبينة في القرآن والسنة، فمثلا: لايعارض أي مسلم الحكم بحرمة أكل لحم الخنازير، والميتة، والربا، والزنا، وشرب الخمر والتعدي على حقوق الآخرين، وغيرها من النصوص والأصول الثابتة قطعاً.

ولكن يقع التعدد في الآراء بين المسلمين في المسائل التي لم يرد بها نص صريح في القرآن والسنة أو في المسائل المستجدة حسب واقع الزمان والمكان، وتحتاج إلى رأى العلماء فيها، وأغلب هذه الآراء تحظى بالقبول بين جميع المسلمين، وعلى رأس من تلقى القبول منهم الأغلبية الكبرى من المسلمين سنة وشيعة.

ورغم أن القرآن الكريم والسنة أحكامهم واحدة، وموحدة لجميع المسلمين، وتلقى قبولهم، إلا أن هناك بعض الآراء الاجتهادية الفرعية، وبعض التصورات المذهبية، التي تلقي التقديس والتعظيم أكثر من تقديس النص الموحى به، والحكم على من يخالفها بأنه في تعداد مرتكب الكبائر والمحرمات، وتلك كانت سبباً في شق وحدة المسلمين وتناثر صفوفهم، وأوقعتهم في دائرة الخلاف، والاختلاف، والافتراق، والشقاق.

وبدلاً من تركها جانباً، والنظر إلى ما يوحدهم، والالتفاف حوله، وهى لا تعد ولا تحصى، تناحروا، وتنافروا، وتعصبوا لآراء، تركها أو فعلها لا يضر ولا ينفع، وعمل كل طرف على تقديس رأيه، وكأنه منوب عن الله في فرض هذا الرأي كواقع عملي على من يخالفه الرأي، بل وصل الأمر إلى العناد، ودائماً عين العناد ترى المُلك شيطاناً، وهذا ما عبر عنه الإمام النورسي في كتابه الكلمات حيث يقول:أمر العناد هو: أنه إذا ما ساعد شيطان إمرءاً قال له: أنه " ملك " وترحم عليه، بينما إذا رأى ملكاً في صف من يخالفه في الرأي، قال: أنه "شيطان" قد بدل لباسه فيعاديه ويلعنه"[٦٢].

مع أن الله سبحانه وضح أن المسائل التي يكون فيها التنازع، يتم عرضها على الكتاب والسنة لأن الكتاب والسنة يقطعان الطريق أمام أي خلاف وفرقة يزعزع وحدة المسلمين،

ويستأصلان كل رأى أو قول أو فعل يؤدى إلى تخاصم المسلم مع المسلم، بل وحتى مع غير المسلم.

لهذا قال الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٦٣]

والمولى تبارك وتعالى بَين ووضح، أن الحكم الفصل يكون لما أمر الله به ورسوله، وليس لأراء مجتهدين قد يكتب لهم الإصابة، وقد يكتب لهم الخطأ، فقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٦٤]

هذا أمر من الله جل وعلا لرسوله، بأن يحكم بما أنزله الله، وأن لا يتبع أهواء الآخرين، وأنه لا قدسية لرأى، أو لشخص، أو لمذهب فوق قدسية القرآن، وهذا يحتم النظر إلى الآراء المذهبية بأنها أراء بشر وليسوا ألهه، ثم عرضها على كتاب الله، وليس الوقوف على هذه الآراء، والنظر في قائلها بقدسية منزهة.

وفى هذا يقول الإمام النورسي: إن ذهن الإنسان ينتقل من الملزوم إلى اللازم، وليس إلى لازم اللازم - كما هو مقرر في علم المنطق - ولو أنتقل فبقصد غير طبيعي، فالكتب الفقهية شبيهه بالملزوم، والقرآن الكريم هو الدال على تلك الأحكام الفقهية ومصدرها، فهو اللازم، والصفة الملازمة الذاتية للقرآن، هي القدسية المحفزة للوجدان

فلأن نظر العامة ينحصر فى الكتب الفقهية فحسب، فلا ينتقل ذهنهم إلى القرآن الكريم إلا خيالاً، ونادراً ما ينصورون قدسيته - من خلال نظرهم المنحصر - ومن هنا يعتاد الوجدان التسيب، ويتعود على الإهمال، فينشأ الجمود"[٦٥] "فالكتب الفقهية إذن ينبغي أن تكون شفافة لعرض القرآن الكريم وإظهاره، ولا تصبح حجاباً دونه كما آلت إلية - بمرور الزمان - من جراء بعض المقلدين، وعندئذ تجدها تقسيراً بين يدي القرآن وليست مصنفات قائمة بذاتها"[٦٦] ومرجع السبب في ذلك، أنه ليس هناك إنسان معصوم من الخطأ، مهما كان

علمه، أو فضله أو منزلته، أو تبحره في العلم، فجميع أئمة المذاهب – سنة أو شيعة – كانوا منصفين مع أنفسهم، وأمام خالقهم، حين أقروا واعترفوا بلسان متقارب، في أنهم بشر وليسوا ملائكة معصومين، فثبت عنهم قولهم:" إنما أنا بشر أخطأ وأصيب فما وافق الكتاب والسنة خذوه وإلا دعوة ".

وقولهم: " كل يؤخذ منه ويرد علية إلا صاحب هذا المقام، وأشار إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم

وقول آخر: " إن مذهبي حق يحتمل فيه الخطأ، وقول غيري خطأ يحتمل فيه الصواب"لذا يعتبر الحل الوحيد هو من خلال إلزام أنفسنا، وإفهامها المسؤولية تجاه القرآن الكريم بفهم جديد، وتنظيم حياتنا بحذافيرها على نمط القرآن الكريم ومنهجه والسنة النبوية، حتى لا نكون في مصاف النادمين في وقت لا ينفع الندم

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا * وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾[٦٧]

بل أن التحذير موجه لرسول الله من رب العزة، بعدم الافتتان بأقوال أي أحد، مهما كانت منزلته ومكانته عندك، ودرجة الصدق فيه، وأن تعتصم بالوحي المنزل عليك من الله، فقال تعالى :﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾[٦٨]فإذا كان المخاطب بهذا رسول الله، فكيف يكون حال غيره من بقية البشر؟

إن الحال التي يجب أن يلازمها كل مؤمن بالله، هي حال الإتباع والطاعة لله ولرسوله كما أمر ربنا تبارك وتعالى، والسير على صراطه المستقيم، ذلك الصراط الذي يلتقي فيه المسلمون – سنة وشيعة – على المحبة والمودة الإخاء، ويفوزون بإتباعهم لنهج الله ورسوله بمحبة الله ومغفرته، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٦٩]

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٧٠]

قال تعالى: ﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[٧١]

وهذه الآيات السابقة، رسخت قناعة تامة عند الإمام النورسي، بأنه لو وجهت حاجات المسلمين الدينية كافة شطر القرآن الكريم مباشرة، لنال ذلك الكتاب المبين من الرغبة والتوجه – الناشئة من الحاجة إلية – أضعاف أضعاف ما هو مشتت الآن من الرغبات، نحو الألوف من الكتب، بل لكان القرآن الكريم مهيمناً هيمنة واضحة على النفوس، ولكانت أوامره الجليلة مطبقة، ومنفذة كلياً، وما كان يظل كتابا يتبرك بتلاوته فحسب.

هذا وإن هناك خطراً عظيماً في مزج الضروريات الدينية، مع المسائل الجزئية الفرعية الخلافية وجعلها كأنها تابعة لها، لأن الذي يرى الآخرين على خطأ، ونفسه على صواب، يدعى: أن مذهبي حق يحتمل فيه الخطأ، والمذهب المخالف يحتمل فيه الصواب، وحيث أن جمهور الناس يعجزون عن أن يميزوا تمييزاً واضحاً، بين الضروريات الدينية، والأمور النظرية الممتزجة معها، تراهم يعممون – سهواً أو وهماً – الخطأ الذي يرونه في الأمور الاجتهادية على الأحكام كلها، ومن هنا تتبين جسامة الخطر.

والذي أراه: أن من يخطئ الآخرين – ويرى نفسه فى صواب دائماً – مصاب بمرض ضيق الفكر وانحصار الذهن، الناشئين من حب النفس، ولا شك أنه مسئول أمام رب العالمين، عن تغافله عن شمول خطاب القرآن إلى البشرية كافة، ثم إن فكر التخطئة – وهو ما ينتج عنه دعاوى واتهامات بالتكفير والتضليل والزندقة والفسق ..وغيرها من الاتهامات المعنوية، التي تؤدى في النهاية إلى إراقة الدماء – هذا منبعه سوء الظن بالآخرين، والانحياز والتحزب، في الوقت الذي يطالبنا فيه الإسلام بحسن الظن، والمحبة والوحدة.

ويكفيه بعداً عن روح الإسلام، ما شُق من جروح غائرة في أرواح المسلمين المتساندة، وما بثه من فرقة بين صفوفهم، فأبعدهم عن أوامر القرآن الكريم"[٣٦] فيا طالب الحقيقة: إن كان الاتفاق في الحق اختلافاً في الأحق، يكون الحق أحق من الأحق، والحسن أحسن من الأحسن"[٧٢].

ثم يوضح الإمام النورسي" أن أركان الدين، وأحكامه الضرورية، نابعة من القرآن الكريم والسنة النبوية المفسرة له، وهى تشتمل على تسعين بالمائة من الدين، وأما المسائل الخلافية التي

تحتمل الاجتهاد، فلا تتجاوز العشرة بالمائة، فالبون شاسع بين أهمية الأحكام الضرورية - والالتفاف حولها كعامل للوحدة والتماسك والتعاون- والمسائل الخلافية - والتي تكون سبباً للفرقة والتنافر - فلو شبهنا المسائل الاجتهادية بالذهب، لكانت الأحكام الضرورية وأركان الإيمان أعمدة من الألماس، ترى: هل يجوز أن تكون تسعون عموداً من الألماس، تابعة لعشرة منها من الذهب؟ وهل يجوز أن يوجه الاهتمام إلى التي من الذهب، أكثر من تلك التي من الألماس"[٧٣].

ولكن ما هو الحل المطروح، من أجل التسعون عموداً من الألماس القرآني، لكي تكون عاملاً فعالاً للوحدة الإسلامية، بدلاً من التنافر والتطاحن، حول مسائل خلافية ثانوية، لاتسمن ولا تغنى من جوع، ويستفيد من وراء هياجها أعداء الدين لضرب أحدهما بالآخر.

إن الحل الملائم نجد له طرحاً، وافياً، وعملياً، وعلمياً وعقلياً عند الإمام النورسي، حيث يقول: إن توجيه أنظار عامة الناس، في الحاجات الدينية، توجيهاً مباشراً إلى القرآن الكريم، خطاب الله العزيز الساطع بإعجازه، والمحاط بهالة القدسية، والذي يهز الوجدان بالإيمان دائماً .. أنما يكون بثلاث طرق:

١- إما بإزالة الحجاب من أمام القرآن الكريم، بتوجيه النقد، وتجريح الثقة بأولئك المؤلفين للكتب الفقهية الذين يستحقون كل الاحترام والتوقير، والثقة والاعتماد، وهذا ظلم فاضح وخطر وجسيم، وإجحاف بحق أولئك الأئمة الأجلاء.

٢- أو تحويل تلك الكتب الفقهية - وما تحتويه من آراء اجتهادية - تدريجياً، إلى كتب يستشف منها فيض القرآن الكريم، أي تصبح تفسيراً له.

ويمكن أن يتم هذا بإتباع طرق تربوية منهجية خاصة، حتى تبلغ تلك الكتب، إلى ما يشبه كتب الأئمة المجتهدين من السلف الصالح، أمثال" الموطأ" لمالك ابن أنس، و" الفقه الأكبر " لأبي حنيفة النعمان".

فعندئذ لا يقرأ كتاب " ابن حجر" - مثلاً - بقصد ما يقوله ابن حجر نفسه، بل يقرأ لأجل فهم ما يأمر به القرآن الكريم، وهذا الطريق بحاجة إلى زمن مديد.

٣- أو شد أنظار جمهور الناس دوماً إلى مستوى أعلى من تلك الكتب - التي أصبحت

حجاباً – أي شدها باستمرار إلى القرآن الكريم، وإظهاره فوقها دائماً، مثلما يفعله أئمة الصوفية، وعندئذ تؤخذ الأحكام الشرعية الضرورية الدينية، من منبعها الأساسي، وهو القرآن الكريم أما الأمور الاجتهادية، التي ترد بالوساطة، فيمكن مراجعتها من مكانها "[٧٤].

ثم يقول الإمام النورسي: أن كل من لديه استعداد وقابلية على الاجتهاد، وحائز على شروطه، له أن يجتهد لنفسه في غير ما ورد فيه النص، من دون أن يلزم الآخرين به، إذ لا يستطيع أن يشرع ويدعوا الأمة إلى مفهومه، إذ فهمه يعد من فقه الشريعة، ولكن ليس الشريعة نفسها .

لذا: ربما يكون الإنسان مجتهداً، ولكن لا يمكن أن يكون مشرعاً، فالدعوة إلى أي فكر كان، مشروطة بقبول جمهور العلماء له، وإلا فهو بدعة مردودة، تنحصر بصاحبها ولا تتعداه"[٧٥].

ثم يبين الإمام النورسي أن الإسلام هو دين السلام والأمان والإتحاد، ويرفض النزاع والخصام فينادي بأعلى صوته لتحقيق ذلك، من خلال شخصية العالم الإسلامية فيقول: أيها العالم الإسلامي .. إن حياتك في الإتحاد .... إن كنت طالباً للاتحاد فاتخذ هذا دستورك: لابد أن يكون " هو حق " بدلاً من " هو الحق " و "هو حسن " بدلاً من " هو الحسن " إذ يحق لكل مسلم أن يقول في مسلكه ومذهبه: إن هذا " حق " ولا أتعرض لما عداه، فإن يك جميلاً، فمذهبي أجمل، بينما لا يحق له القول في مذهبه: إن هذا هو " الحق " وما عداه باطل، وما عندي هو " الحسن " فحسب وغيره قبيح وخطأ.

إن ضيق الذهن وانحصاره على شيء، ينشأ من حب النفس، ثم يكون داء، ومنه ينجم النزاع. فالأدوية تتعدد بحسب تعدد الأدواء، ويكون تعددها حقاً، وهكذا الحق يتعدد، والحاجات والأغذية تتنوع، وتنوعها حق، وهكذا الحق يتنوع، والاستعدادات ووسائل التربية تتشعب، وتشعبها حق، وهكذا الحق يتشعب، فالمادة الواحدة قد تكون داءً ودواء حسب مزاجين اثنين، إن صاحب كل مذهب يحكم حكماً مطلقاً مهملاً، من دون أن يعين حدود

مذهبه، إذ يدعه لاختلاف الأمزجة، ولكن التعصب المذهبي هو الذي يولد التعميم، ولدى الالتزام بالتعميم ينشأ النزاع .

كانت هناك هوات سحيقة بين طبقات البشر قبل الإسلام، مع بعد شاسع بينهما، فاستوجب تعدد الأنبياء وظهورهم في وقت واحد، كما استوجب تنوع الشرائع وتعدد المذاهب، ولكن الإسلام أوجد انقلاباً في البشرية، فتقارب الناس، واتحد الشرع، وأصبح الرسول واحداً، وما لم تتساوى المستويات، فإن المذاهب تتعدد، ومتى ما تساوت وأوفت التربية بحاجات الناس كافة تتحد المذاهب"[٧٦].

أهم نتائج البحث

إن التوصل إلى مقاصد القرآن ومضمونه لن يتأتى من القراءة النصية العابرة، والنشود للتقدم والنهوض لن يتحقق بدون التدبر والتفكر في آيات الله، واستعراض سيرة الحضارات وأسباب نهوضها وتقدمها وعوامل تأخرها وزوالها بعين فاحصة للسياق القرآني.

ولابد وأن نعي جيداً أن قاعدة الصلاح والإصلاح لواقع حالنا المعاصر على كافة الأصعدة، لن يستقر له قرار، ولن نأكل من ثماره شيئاً إذا لم نضع نصب أعيننا: أنه لن يصلح حال الأمة إلا بما صلح به أولها، وصلاح حال الأوائل كان مرتكزاً على المعايشة الواقعية للقرآن الكريم، وحضور القلب، والمدارسة وصدق الطلب، وسلامة القراءة والترسل فيها والترتيب بين أجزائها، واستظهار القرآن، وإدامة النظر فيه، وصلاة الليل والتحلي بأخلاق القرآن: قولاً وعملاً، إلى غير ذلك من المعينات التي تجب على طالب الفهم القرآني أن يضعها في حسبانه حتى يصل إلى مراده.

والفهم الإنساني للقرآن الكريم، والوصول للإدراك الواعي والحكم السليم، والإفادة الحقيقية من معين القرآن الكريم، يتطلب من الإنسان الواعي أن يبتعد عن الميل إلى نزعة سلبية أو مذهب، وأن يجنب نفسه النظرة الجزئية للقرآن الكريم، أو الوقوف عند حسن التلاوة وجمال الصوت، أو وضع النصوص في غير مواضعها، أو أن يكون هم الإنسان الكم لا الكيف، أو أن يكون غرضه آخر السورة دون الوقوف عند مفادها، أو أن يكون المرء صاحب قلب مريض لا

يه على الانتفاع، أو أن يكون لديه تورع واهم أو تدين مغلوط وفهم مغشوش، أو أن يشغل نفسه بالمبهمات، أو يهمل قواعد التفسير.

نسأل الله أن يرزقنا تعلم القرآن وفهمه وحسن تلاوته، وأن يجعله لنا شفيعاً في الدنيا والآخرة .

وعلى الله قصد السبيل .... وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش

١- أنظر بتوسع : محمد الطاهر الميساوي: مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار الفجر، ودار النفائس، الأردن، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩ م، ص:٧١، وتعتبر" الموافقات "للإمام" الشاطبي" أول سفر تنظيري للمقاصد، ويكفي اجتهاده الدؤب في بيان معقولية الحقائق القرآنية ومراتب مقاصدها.

٢- د/ يوسف القرضاوي: فقه الأولويات، دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م، ص :٣٨، وأنظر إلى نفس تلك المعاني بتوسع عند الإمام النورسي: صيقل الإسلام، ص: ٣٤٨.

٣- محمد الطاهر الميساوي : المرجع السابق، ص: ٢٥١.

٤- علال الفاسي : مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط٤، ١٩٩١م، ص: ٣، وأنظر في نفس المرجع: ص: ٤١ – ٤٢.

٥- المرجع السابق نفسه : ص: ٣ .

٦- نورالدين بن مختار الخادمي: الاجتهاد المقاصدي: حجيته ، ضوابطه ، مجالاته ، صادر عن كتاب الأمة رقم ٦٥ /٦٦، ١٤١٩ هـ، ص: ٥٢ – ٥٣.

٧- النورسي : صيقل الإسلام ، ص ٤٧ .

٨- د/ عبد العزيز البطيوي : (ندوة)أساسيات الفكر المقاصدي عند النورسي، ص: ٢٠٤، سوزلر، استانبول ٢٠٠٩م.

٩- النورسي: المثنوي العربي النوري، ص: ٤٢٧ – ٤٢٨، وأنظر/ الكلمات، ص: ٤٨٤ – ٤٨٧.

١٠- أنظر لكل ما يرتبط بتلك المعاني عند الإمام النورسي: الكلمات، ص: ٢٦٥ - ٢٧٧.

١١- النورسي: المكتوبات، ص: ٢٣٦ – ٢٤٢ بتصرف .

١٢- النورسي: الكلمات، ص:٢٦٤، وأنظر في نفس المصدر: ص: ٤٢٢، وأنظر/ المثنوي العربي النوري، ص: ٦٩ – ٧٠.

١٣- النورسي: مجموعة الموازنات، ص:١٣٠- ١٣٢ بتصرف.

١٤- النورسي: الكلمات، ص: ٢٩٥ .

١٥- انظر بتوسع كتابنا: البُعد الإيماني في فلسفة الحضارة، دار سوزلر للنشر، القاهرة .

١٦- سورة الأنعام، ٦ : ٨٢.

١٧-سورة لقمان، ٢١ :١٣,

١٨-سورة الأنعام، ٦ :٣٨.

١٩- شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، ص: ٤١ – ٤٢ بتصرف.

٢٠- د/ محمود حمدي زقزوق: دور الإسلام في تطور الفكر الفلسفي، ص:٣٢، دار المنار، القاهرة، ١٩٨٩م

٢١- وذلك ينطبق على تلك المحاولة الرائدة والعميقة، التي قام بها المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز في دراسته القيمة والهادفة " دستور الأخلاق في القرآن " والتي انصبت على استخلاص نظرية قرآنية متكاملة في الأخلاق، وقد كانت هذه الدراسة في الأصل، هي الرسالة التي تقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه من السربون، وعنوانها الأصلي هو " La Morale due Koran ".

٢٢- حديث شريف: رواه الترمذي وابن ماجة في سننهما، وأنظر د/ راجح عبدالحميد الكردي: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، ط١، ص: ٧ — ٨، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، والمؤيد بالرياض، ١٩٩٢م .

٢٣- هذه الادعاءات وغيرها ، كان يروج لها أصحاب الاتجاه التغريبي المعادي للإسلام، أنظر:أشرف عبدالرافع: الحرية والمعرفة، ص: ٥٤ - ٥٥، وأنظر: شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون، ص: ١١٣.

٢٤- محمد فريد وجدي، الرد على الماديين، ٢٤ — ٢٧ بتصرف، هدية مجلة الأزهر لجمادي الأولى ١٤٣٤هـ

٢٥- محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص:٣ — ٤ بتصرف.

٢٦- سورة المنافقون، ٦٣ : ٨.

٢٧-سورة الروم ٣٠: ٤٧.

٢٨- سورة الأنفال، ٨ : ٥٣.

٢٩- سورة الرعد، ١٣ : ١١.

٣٠- سورة هود، ١١: ١١٧.

٣١- شكيب أرسلان : لماذا تأخر المسلمون ، ص٧٥

٣٢- المصدر نفسه: ص: ٧٥.

٣٣- سورة البقرة، ٢ : ٢٦١.

٣٤- سورة العنكبوت، ٢٩: ٤٥.

٣٥- سورة التوبة، ٩: ١٠٣.

٣٦- سورة البقرة،٢ : ١٩٧.

٣٧- شكيب أرسلان: المرجع السابق، ص: ٨٨ — ١١٦ بتصرف، وفي الحقيقة أن هناك العديد من المفكرين الإسلاميين الذين عكفوا على حل هذه الإشكالية، لتوافقهم على خطورتها في إعاقة النهوض الحضاري، وكان من أبرزهم الإمام رفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، وسعيد النورسي، ومالك بن نبي،

والدكتور يوسف القرضاوي، الذي ناقش بموضوعية علمية رصينة، الأثر السلبي للجمود والجحود، والغلو والتطرف، على الصحوة الإسلامية وحركة التجديد، وذلك في كتابه الرائع : الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، ص: ٤ – ٨٤، دار الشروق، القاهرة ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، والشيخ محمد الغزالي في كتابه: سر تأخر العرب والمسلمين، ص: ٣١ – ٦٣، دار الصحوة، القاهرة، ١٩٨٥م، وهو كتاب لا يعدو أن يكون تعبيراً عن خواطر مفكر مهموم بالتردي الحضاري للأمة بسبب بعدها عن المعايشة الواقعية للقرآن الكريم والسنة النبوية.

٣٨- شكيب أرسلان : المصدر نفسه، ص: ٧٦ – ١٢٥.

٣٩- سورة القصص، ٢٨ : ٧٧

٤٠- سورة الملك، ٦٧ : ١٥

٤١- سورة إبراهيم، ١٤ : ٣٢ – ٣٣.

٤٢- سورة الجاثية، ٤٥ : ١٣.

٤٣- سورة البقرة، ٢ : ١٦٤.

٤٤- شكيب أرسلان:المصدر نفسه، ص: ١٢٧ وأنظر: محمد الغزالي: مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، الإسلام والاستبداد السياسي.

٤٥- سورة الذاريات،٥١ :٥٦.

٤٦- انظر بتوسع كتابنا: الحرية والمعرفة، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ٢٠١٠ م.

٤٧- أنظر بتوسع: ابن القيم: شفاء العليل، دار التراث، ص: ٤٣٧.

٤٨- أنظر بتوسع: محمد الطاهر الميساوي: مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ محمد الطاهر بن عاشور و" الموافقات " للإمام " الشاطبي " وتفسير الشيخ عبد الحميد كشك : في رحاب القرآن .

٤٩- سورة البقرة، ٢: ١٥٨.

٥٠- سورة آل عمران، ٣: ١٨٨.

٥١- سورة البقرة، ٢ : ٢٦٩.

٥٢- سورة هود، ١١ : ١-٢.

٥٣- سورة الزمر، ٣٩ : ٢٣.

٥٤- سورة آل عمران، ٣ : ٧.

٥٥- القصص، ٢٨ :٢٥.

٥٦- سورة لقمان، ٣١ :١٣

٥٧- سورة النحل، ١٦: ٥٨ — ٥٩.

٥٨- سورة البقرة، ٢ : ١٨٩.

٥٩- سورة المائدة، ٥ :١٠٣.

٦٠- سور إبراهيم، ١٤: ٤.

٦١- أنظر بتوسع في كتابنا، الدكتور أشرف عبدالرافع الدرفيلي، نحو التوحد الإسلامي الكبير، سوزلر، القاهرة، ٢٠١٢م.

٦٢- النورسي: الكلمات، ص: ٨٤٦ .

٦٣- سورة النساء، ٤ : ٥٩.

٦٤- سورة المائدة، ٥ : ٤٩ — ٥٠.

٦٥- النورسي: صيقل الإسلام ، ص: ٣٤٨ .

٦٦- النورسي: المصدر نفسه، ص: ٣٤٨,

٦٧- سورة الفرقان، ٢٥: ٢٧ — ٣٠.

٦٨- سورة الإسراء، ١٧ : ٧٣.

٦٩- سورة آل عمران، ٣ :٣١.

٧٠- سورة الأنعام، ٦ : ١٥٣.

٧١- سورة الأعراف، ٧ : ٣.

٧٢- النورسي: صيقل الإسلام، ص: ٣٤٩- ٣٥٠.

٧٣- النورسي: الكلمات، ص: ٨٤٦ .

٧٤- النورسي: صيقل الإسلام، ص: ٣٤٧ .

٧٥- النورسي: صيقل الإسلام، ص: ٣٤٨ - ٣٤٩ .

٧٦- النورسي: الكلمات، ص: ٨٣ .

٧٧- بديع الزمان النورسي: الكلمات، ص: ٨٤٦ - ٨٤٧.